السنّة النبوية مصدر للمعرفة

الدكتور محمد عمارة ★

بين منهجين :

في مناهج الفكر، السائدة والمؤثرة، في الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة ــ بشقّيها الليبرالي والشمولي ــ وبسبب من النزعة المادية في دراسة الواقع والتاريخ وتفسيرهما، كانت السيادة للمناهج الوضعية التجريبية أكثر من غيرها، بل ودون غيرها، في أغلب الميادين .

فالانسان في نظر هذه الحضارة هو الانسان الدنيوي، إنسان عالم الشهادة ... إنسان ﴿ ... **ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ [1]... وحتى عندما يتديّن، فان تديّنه يقف عند الطقوس، فلا يعرف طريقه إلى تشكيل واقعه ونظرته للدنيا ومناهجه في التفكير...

وبسبب من سيادة هذه النزعة (الدنيوية ــ العلمانية)، لم تعتمد مناهج الفكر الوضعي هذه سوى « الدنيا ــ العالم ــ المحسوس » مصدراً وحيداً للمعرفة الحقيقية والعلم الصحيح، كما وقفت في أدوات المعرفة عند الحواس دون سواها، وقطعت، فيما يشبه الاطلاق والتعميم، بأنّ ما سوى المادة والمحسوس، وما سوى الحواس ــ والعقل قوة من قواها ــ لا يمكن أن يثمر معرفة صادقة ولا علما يقينيّاً، وأقصى ما يبلغه هو انتاج « الخيال » و« الميتافيزيقا »، التي إن أشبعت « الوجدان » فانّها لا ترقى إلى ما تطمئن إليه « العقول » !..

ولذلك المنطلق والموقف في المذهبية الغربية كان انفراد « المنهج التجريبي » لديها كالمنهج الوحيد القادر والصالح لأن يثمر المعارف اليقينية التي تستحق احترام المفكرين والعلماء... فلأنّ أصحاب هذه النزعة قد اختزلوا عالم الانسان إلى « عالم الشهادة » كان اختزالهم مصادر المعرفة الصحيحة إلى الظواهر المادّية دون غيرها، ومن ثمّ اختزالهم أدوات المعرفة إلى الحواس..

تلك هي النزعة السائدة والمؤثرة في **مناهج الفكر الغربي ... النزعة الوضعية لأصحاب المنهج التجريبي**..

أما **المذهبية الاسلامية**، ذات السيادة والتأثير ــ في مناهج الفكر ــ بالحضارة الاسلامية، فإنّ لها في هذه القضية موقفاً آخر مغايراً...

فالانسان، **في المنظور الاسلامي، ليس دنيويا فقط**، لأنه مخلوق لله الواحد، سبحانه وتعالى، وهو في

★ القاهرة ــ جمهورية مصر العربية

١ ــ الجاثية : ٢٤ .

هذه الدنيا ليس موكولا إلى واقعه المحسوس وإلى حواسه وحدهما، لأنه فيها خليفة الله، سبحانه، مكلّف بإعمارها وفق بنود عهد وعقد استخلاف، وهذه الامانة التي حملها هي الابتلاء الذي سيحاسب عليه، بعد البعث في يوم الدين .

إذا، **ففي المنظور الاسلامي**، ليست هذه الدنيا، **وليس عالم الشهادة** هذا، **هو العالم الوحيد الذي يؤمن بوجود هذا الانسان المسلم** ... فقبله كان عالم البدء ... وبعده يأتي عالم المصير ... فليست المادّة والمحسوسات، هي وحدها مصدر المعرفة، لأن عالمها ليس هو العالم الوحيد في هذا الكون وهذا الوجود .

ولأن الانسان هو واحد من مخلوقات الله، التي تجلّ عن عدّ وحصر هذا الانسان ....وبسبب مكانته الخاصة، المميزة والمتميزة، بين سائر المخلوقات، كانت رعاية الله، سبحانه وتعالى لهذا الانسان، وهي التي تتخذ العديد من الصور، وتسلك الكثير من الطرق والأساليب ... ولما كان مصدر هذه الرعاية، الله سبحانه وتعالى، ليس مادّة، فلقد جعل لهذه الرعاية، بما تتضمن من فكر وتوجيه وعلم وتعليم، مصادر ووسائل غير تلك المادّة المحسوسة التي تدركها حواس الانسان .. وهنا يأتي دور الرسالات السماوية في مصادر المعرفة لدى المؤمنين بهذه الرسالات ... **فالوحي الالهي ــ عبر الرسالات والرسل ــ هو مصدر ــ غير مادي ــ للمعرفة والعلم والفكر والتوجيه**...

فعالم الشهادة، هو أحد عوالم هذا الكون، وليس العالم الوحيد فيه ... والحواس التي يدرك بها الانسان معارف عالم الشهادة، هي حواس إنسان مخلوق، فهي إذن محدودة القدرات والآفاق، إذا ما قيست بالقدرة المطلقة والعلم الكلي والمحيط لمن خلق هذا الانسان ورعاه ... فإذا استقلت هذه القدرات الانسانية بإدراك أمر، فإنّها لا تستقل بإدراك أمور، ولذلك فلقد منّ الله، سبحانه وتعالى، على هذا الانسان، مظهراً من مظاهر رعايته له، وبسبب مكانته الخاصة بين المخلوقات ــ إذ هو الذي نفخ الله في طينته من روحه، وحمل، دونها، أمانة الاختيار والمسؤولية والتكليف ــ منّ الله على هذا الانسان بأن يسّر له مصادر للمعرفة وسبلًا لتحصيلها، تتيح له علم ما لا تعلّمه إيّاه ظواهر المادة في عالم الشهادة المحسوس...

إنّ الله تعالى لم يكلْه ــ في المعرفة ــ إلى حواسه وحدها، وإلى قدراته بمفردها ... **فكانت رسالات السماء مصادر للمعرفة ، لا تلغي المعارف المحسوسة المشاهدة ، ولا تقلل من شأن أدوات إدراكها ، وإنّما تضيف إلى المعرفة الانسانية معارف يقينية ، لا تثمرها المادّة وتستقل بادراكها الحواس** ، لأنها معارف عوالم غير مادّية. وإنباء عن مقادير من علم هذه العوالم، تفضّل بها على هذا الانسان عالم الغيب والشهادة، وذلك حتّى لا يظل هذا الانسان ــ المكون من الروح والجسد ــ بمعزل عن غذاء الروح، وحبيساً للمعارف المادية دون سواها...

كانت معارف هذه الرسالات السماوية :

ــ **تأكيداً للمعارف العقلية الصادقة** ، يُطَمْئن الانسان العاقل إلى صدق ما وصل إليه بعقله الانساني، عندما وصل، ذاتياً، إلى تحسين الحسن وتقبيح القبيح ...

ـــ وتصحيحاً لأحكام وتصوّرات الحواس ـــ ومنها العقل الانساني ـــ التي لم تصادف الحق والصواب، لنسبية قدرات هذه الحواس ومحدودية آفاقها...

ـــ **وإعانة لهذا الانسان على معرفة وإدراك المقادير الضرورية** ـــ لترشيد مسيرته ـــ من المعارف والعلوم **التي لا يستطيع عقله أن يستقلّ بإدراكها** .

ـــ **ودعوةً له كي يغوص فيما لا تدركه حواسّه**، مما سكتت هذه الرسالات عن تفصيل خبره من المغيبات، ومن الأحكام التعبدية .

فهي، إذاً، عوالم وميادين ومصادر للمعرفة ... وهي، أيضاً، سبل متعددة لتحصيل المعارف اليقينية، يؤمن بها الانسان المسلم، بحكم إيمانه الديني، وليس فقط عالم الشهادة، ولا الحواس الانسانية وحدها، هي مصادر وأدوات المعرفة الحقّة، كما في « الوضعية المادّية » عند المفكّرين الغربيّين..

إنّ الانسان المسلم ، بحكم إيمانه بتعدد عوالم هذا الكون وهذا الوجود ، وبحكم إيمانه بالكثرة والتعددية ـــ التي لا نستطيع، لأننا بشر، حصرها ـــ في أمم المخلوقات وجماعاتها في هذا الوجود ... **وبحكم إيمانه بالتكليف والمسؤولية التي ترتبت على حمله الأمانة** كخليفة لله ـــ الامر الذي يقتضي حساباً وجزاء، تنتفي بهما « العبثية » عن هذا الوجود ... **إن هذا الانسان ـــ بحكم ذلك الايمان ـــ لا يقف بتطلعاته المعرفيّة عند عالم الشهادة هذا ، وإنّما يتطلع ، أيضاً ، إلى ما وراء هذا العالم** ، ويتلمّس معارف لا تحتملها حواسه وحدها، ولا تستقل بادراك حقائقها ... وهو يشعر، بسبب من تجاوزه إطار الدنيويّة المحدود، بأن سعادته ـــ الدنيوية والأخروية ـــ مرهونة بتكامل معارفه ـــ ولو على نحوٍ ما ـــ للكثير من ميادين المعرفة ومصادرها ... وهنا تأتي الرسالات السماوية ـــ بما تقدّم من مصادر للمعرفة غير مادية ـــ لتلبّي تطلعات هذا الانسان .

تلك هي **المنطلقات الايمانية**، التي جعلت **للمذهبية الاسلاميّة ، في مصادر المعرفة ، نهجاً متميّزاً من ذلك الذي ساد لدى المفكرين الوضعيّين الغربيّين**...

ولذلك، وجدنا هذه **المذهبية الاسلامية ، لا تقف بمصادر المعرفة عند « المنهج التجريبي » وحده** .. انها لم تهمله، ولم تغضّ من شأنه ولا من شأن ثمراته المعرفية، بل **إنه أحد إبداعات حضارتها الاسلامية ، فيها تبلور ، وأعطى ثمراته ، قبل أن ينتقل ويتطور لدى الغربيّين** ... **إنها لا تهمله ، ولكنها لا تقول بوحدانيّته سبيلا للمعارف الانسانية اليقينيّة** ... وإنّما هي تعتمد معه :

أ ـــ المنهج الاستنباطيّ : ذلك الذي يستنبط به الانسان **من الجزئيات المادّية معارف** تقطع بضرورة وجود غير مادّي...

إن العقل السليم عندما ينظر في آيات الكون، وظواهره المادّية، والنظام المحكم الذي يحكم كل من فيه وما فيه، لا تقف معارفه المستنبطة عند ما هو مادّي منها، تستقل حواسه بإدراكها، وإنّما هو يدرك، يقينا، ضرورة وجود غير مادّي، مفارق لهذا العالم المادّي، هو الذي منحه الوجود والنظام والانتظام .

ب ـــ والمنهج التاريخيّ : الذي يستدل به الانسان، بواسطة التواتر النقليّ، على **وجود مادّي تاريخيّ**

لم تشهده حواسّه، ومع ذلك فإنّ هذه الحواس تبلغ في التصديق بوجوده مرتبة اليقين .

ج ــ والمنهج السمعيّ : ذلك الذي يكون **الوحي الالهيّ** ــ البلاغ القرآنيّ ــ **والسنّة النبويّة** ــ البيان النبويّ لهذا البلاغ القرآنيّ ــ **مصدر علومه ومعارفه** ... فهذا **المنهج السمعيّ يدرك الانسان المعارف المتاحة عن عالم الغيب، غير الماديّ**، والذي يستحيل إدراكه بالأدوات المادّية للادراك .. كما يدرك المعارف التي تعين العقل على إدراك ما لا يستقل بإدراكه، وتساعد الحواس على وعي ما لا تنفرد بوعيه...

وليس أمر هذه المعارف ــ **التي تتحصل للانسان بالمنهج السمعي ــ ليس أمرها في الصدق واليقين بأقلّ مما يكون الحال عليه في معارف المنهج التجريبيّ، كما حسب ويحسب ذلك الغربيّون**، الذين رأوها، « **خيالا ــ وميتافيزيقا** » **لا ترقى الى مرتبة اليقين** .. ليس أمر هذه المعارف وحظها من اليقين على هذا النحو من التواضع والتدنّي، بل **إنّ الأمر** ربما كان **على النقيض من تصور الغربيين** لهذا الموضوع ... **موضوع يقينيّة المعارف المتحصّلة عن طريق المنهج السمعيّ**...

فالمنهج السمعيّ، اذا **اكتملت مقوّمات الثقة بمصادر معارفه**، واجتمعت شروط الصحة لمأثوراته، **رواية ودراية**، كان **اطمئنان العقل المؤمن** للمعارف المتحصلة عن طريقه، **اكبر من تلك المعارف المتحصلة بحواسّ الانسان** ... إذ ثمة فارق عظيم وأكيد، بين خبر مصدره صاحب العلم المطلق والمحيط، وبين خبر مصدره علم العالم المحدود القدرة والإمكانات ... **وفارق عظيم بين خبر المعصوم وخبر الخطّاء !..**

وقد يتساءل الذين يتشكّكون في هذه الحقيقة.
أنّى للانسان، الذي يدرك بالحواسّ المادّية، ويعقل بعقله، أن يتيقن بمعارف مصادرها غير مادّية، ولا تستطيع الأدوات المادّية للانسان أن تختبر صدقها، وتتحقق من درجة يقينها ؟؟ ... و ... ألا يكون تكليف الانسان ــ وهذا حاله ــ بالتصديق اليقيني بمعارف لا تستطيع أدواته المادّية اختبارها، لوناً من ألوان « التكليف بما لا يطاق » ؟...

قد يتساءل الذين يتشككون في هذه الحقيقة هذا التساؤل، الذي يبدو مستكملا «الشكل المنطقيّ»!... ولكننا ننبّه على أنّ المعرفة بالمنطلقات الايمانيّة الاسلاميّة تنفي وجود الحاجة لهذا التساؤل من الاساس..

ذلك أنّ المسلم يدرك حقيقة وجود إله ــ غير مادّي ــ خالق لهذا العالم، وقائم على رعايته ... يدرك ذلك بالعقل الناظر في « الصنعة » و« المصنوع »، وفي آيات الوجود وكتاب الكون المادّي المفتوح ... فبالاستنباط العقليّ يؤمن المسلم بالله المستجمع للكمالات المطلقة والقدرات المطلقة ... وبما أنّ

رعاية الخالق لمخلوقاته هي بعض من كمالات هذا الخالق، كان اللّطف الالهيّ، المتمثل في الرّسل والرّسالات السماوّية، هداية للانسان، وتصويبا لخطاه على درب الخلافة، وإعانة لعقله وحواسّه على إدراك الضروريّ من المعارف التي لا تستقلّ قدراته بإدراكها، ولا ينفرد عقله بعقلها ... إذن ... فمصدر هذه المعارف السمعيّة، التي نتلقّاها بالمنهج السمعيّ، لا يقلّ في المعقوليّة عن المصادر المادّية للمعارف المستفادة بالمنهج التجريبيّ، لأنّ هذه المصادر الغيبيّة هي مصادر معقولة، عقلها الانسان العاقل بالمنهج الاستنباطيّ، فليست هي من « الميتافيزيقا » و«الخيال»، الغريبين عن العقل ويقينه، كما يحسب الوضعيّون الغربيّون... فاذا توفرت للأخبار السمعيّة شروط الصدق، رواية ودراية، بعد أن رأينا توفّر معقوليّة مصادرها، رغم لا مادّيتها ورغم غيبيّتها، فإنّها تكون قد استجمعت وامتلكت كلّ شروط اليقين الذي يتطلع إليه العقل الانسانيّ ويتطلّبه في المعارف اليقينيّة...

تلك هي **منطلقات المذهبيّة الاسلامية** في النظر الى مناهج المعرفة، وذلك هو طريقها المتميز في **اعتماد المنهج السمعيّ واحداً من المناهج التي تثمر المعارف الصادقة واليقينيّة في النسق الفكري الذي ساد في حضارة الاسلام ... وبهذا المنهج غدت السنّة النبويّة ــ ومن قبلها القرآن الكريم ــ مصادر للمعرفة، والمعرفة اليقينيّة، في مذهبيّة الاسلام ...**

القران ... والسنّة ... أو : البلاغ ... والبيان :

القرآن الكريم، هو كلام الله، **ووضعه** ، وكتابه الذي أحكمت آياته، وبلاغه المبين، على لسان رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، إلى العالمين ... هو وحي الله تعالى إلى رسوله، ومعجزة التحدّي وآية صدق هذا الرسول ... وهو، بمقاييس أرقى مستويات المنهج السمعيّ، المصدر الذي لا يدانيه سواه، سواء في الاعجاز المتحدى، أو في الحجية المعجزة، أو في توثيق الرواية، أو في عقلانية الدّراية، أو في التعهد الالهي له بالحفظ، وبعدم تبديل ما فيه من كلمات، وبالقطع بأن الباطل لا يأتيه من أيّ اتجاه...

﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ (١) ... **﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله، قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ، إنّي أخاف إنْ عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾** (٢) ... **﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم ﴾** (٣) **﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك، لا مبدل لكلماته، ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾** (٤) **﴿ .. وإنّه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴾** (٥)..

---

١ ــ الحجر : ٩

٢ ــ يونس : ١٥

٣ ــ يونس : ٦٤

٤ ــ الكهف : ٢٧

٥ ــ فصلت : ٤١،٤٢ .

ولقد كان تطاول القرون ــ التي بلغت الخامس عشر حتى الآن ــ شاهدا على صدق هذا الوعد الالهي بالحفظ وعدم التبديل، ونفي الباطل، ومعجزا جديدا، ودائما يشهد على أنّ هذا القرآن الكريم بالغ، في مصادر المعرفة، أعلى درجات الصدق والثقة واليقين ... وذلك فضلا عن دلائل صدقه المستمدة من أدلة اعجازه الأخرى، التي لا مجال للحديث عنها في هذه الاشارة، بهذا المقام .

ولقد كانت مهمة الرسول، ﷺ ــ وهو الذي بلغت دعواه الرسالة بهذا القرآن المعجز قمة اليقين المعرفي ــ .. كانت مهمة الرسول :

أ ــ **البلاغ لهذا القرآن الكريم** ... وهي مهمة جاءه الأمر بها في كثير من آيات هذا القرآن، بلفظ « البلاغ » ومشتقاته، وبألفاظ أخرى تحمل ذات المضمون ... مضمون إبلاغ هذا القرآن الكريم إلى العالمين ... ولقد نهض رسول الله ﷺ، بهذه المهمّة، فبلّغ الرسالة، وأشهد على ذلك الله والناس أجمعين .

ب ــ **والبيان لهذا البلاغ القرآني** ... وذلك بتفصيل مجمله ... وتفسير إشاراته ... والبسط لكلّياته ... والتخصيص لعامه ... والتقييد لمطلقه ... ووضع الضوابط المعينة على التمييز بين محكمه ومتشابهه... وأيضا بتوقيت الشعائر والفرائض والمناسك، وبيان مقاديرها وشروطها وأركانها وأنصبتها ومصادرها ومصارفها وهيئاتها ... الخ .. الخ .. ثم، صياغة المقاصد الشرعية الكليّة في قوانين تحكم واقع الأمة وعلاقات ابنائها، وتصبغها بصبغة الله .. الخ .. الخ..

تلك كانت المهمّة الثانية من مهامّ الرسالة : مهمّة البيان للبلاغ القرآني .. ولقد أنجزها الرسول، ﷺ، وكان فيها القائم بما فرضه عليه الله ... ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ [1] ... ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ [2].

ج ــ **والتجسيد العمليّ للرسالة الالهية** : عقيدة وشَريعة وقيما وأخلاقا، التجسيد العمليّ لها، بالتجربة النبويّة، والتطبيق النبويّ لمعالم المنهج الاسلاميّ، والذي وضع الفكر القرآنيّ في الممارسة والتطبيق، وأحال المنهج الربّانيّ بناء معاشا في الحياة، تخلّقت من حوله إبداعات المسلمين، المصطبغة بصبغته الربّانية في شكل علوم وفنون وأبنية مدنية، هي تلك التي مثّلت حضارة الاسلام...

فالاسلام لم يقف، في الرسالة المحمديّة، عند حدود البلاغ القرآنيّ، ولا البيان النبويّ النظريّ لهذا البلاغ القرآنيّ، لأنه لم يكن مجرّد مذهب، أو نحلة فكرية، أو وصايا يودعها الرسول أمانة لدى عدد من الحواريين ... وانما كان، عبر التجربة النبويّة، بناء حياتيا معاشا، في الممارسة والسلوك والدّولة والعلاقات ... لقد غدا صبغة الله التي صبغت الواقع والأمّة والفكر

---

١ ــ النحل : ٤٤

٢ ــ النحل : ٦٤

والحضارة ... فكان القرآن ــ البلاغ ــ الذي جسّدته السنّة النبوية ــ بالبيان النظريّ والتجسيد التطبيقيّ ــ كيانا حيّاً يحيا به المسلمُون، ويحيا في هؤلاء المسلمين !..

تلك هي السنّة النبويّة، في مفهوم كاتب هذه الصفحات، وتلك هي مكانتها ــ « مصدرا » للمعرفة ــ من القرآن، أول وأوثق مصادر المعرفة السمعية اليقينيّة في حياة الاسلام والنسق الفكريّ للمسلمين...

ولذلك، فانه بحكم شمول البلاغ القرآنيّ لشؤون عالميْ الغيب والشهادة، وجمعه للمبادئ والكلّيات والوصايا والتّوجيهات والضّوابط الهادية والموجّهة والمرشدة والحاكمة لمناحي الحياة الانسانيّة كافّة... ووفائه ــ باعتباره كتاب الرّسالة الخاتمة والخالدة ــ بالاجابة على علامات الاستفهام الانسانيّة : عن البدء .. والحكمة ... والتّاريخ .. والواقع ... والمستقبل ... والمنتهى والمصير ... وعن المعايير في كل ذلك ... بحكم شمول البلاغ القرآني ووفائه ــ مصدرا للمعرفة الاسلاميّة الأولى ــ لكل هذه العوالم والميادين .. كانت السنّة النبويّة ــ بحكم كونها البيان العمليّ ــ في الفكر والتطبيق ــ لهذا البلاغ القرآني، مصدرا للمعرفة اليقينيّة في كلّ ميادين ومناحي هذا البلاغ القرآني..

إنّ السنّة ــ في عرفنا اللغويّ ــ : هي الطّريقة .. وفي عرفنا الشرعيّ : هي ما صدر عن رسول الله، ﷺ ــ غير القرآن ــ من قول ــ هو الحديث ــ أو فعل أو تقرير..

ومع صدق ودقّة هذا التعريف.. فان مقاصد هذا البحث، تجعل لتعريف السنّة هذا أبعادا تتّسق مع هذه المقاصد، فتراها : منهج النبوة « النظري ــ والعمليّ »، الذي جسّد البلاغ القرآني، وأحال كلمات الله واقعا وحضارة يحياهما الناس الذين آمنوا بهذا البلاغ ... **ومن هنا تأتّي مكانتها مصدرا للمعرفة، تستمدّ صدقها ــ بعد اجتماع شروط الصّدق في الرواية والدّراية ــ من صلتها بالقرآن الصّادق بالاعجاز .. إنّ إطار هذه السنّة ــ مبيّنةً للبلاغ القرآني ــ** يحتّم ان يكون لها في هذا البلاغ معنى او مبنى، وهي بذلك قد غدت وتغدو **المصدر النبويّ لبيان البلاغ الالهيّ**، سواء أكان **بلاغاً** هذا **البيان النبوي**، أو **اجتهادا نبويا** أقرّه بلاغ القرآن.

وبهذا المعنى لعلاقة السنّة النبوية بالقرآن الكريم ... وفي إطار موقف المذهبيّة الاسلاميّة من المنهج السمعيّ ، فان المسلم يلتمس في هذه السنّة ــ ومنها ــ مصدرا للمعرفة :

أ ــ مصدراً **لمعرفة أسباب نزول البلاغ القرآنيّ والوحي الالهيّ على رسول الله، ﷺ** .. بما يمثّله ذلك من علم لتفسير القرآن، ووعي بحكمة التّشريع، وعون على مواكبة هذا التّشريع للتطوّر مع تغيّر الزّمان والمكان...

ب ــ **ومصدراً لمعرفة التّاريخ السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والحربيّ والأدبيّ للتجربة الاسلاميّة في عصر صدر الاسلام**، وهي التي حوّلت البلاغ القرآنيّ والبيان النبويّ إلى كيان

اجتماعيّ حيّ، ومجتمع انسانيّ وبناء حضاريّ معاش...

ج ــ **ومصدراً « للفروع » التي وقف القرآن عند أصولها ومبادئها**، ومنها نتعلّم التّمييز بين الثّوابت والمبادئ والاركان والاصول وبين الفروع والمتغيّرات، التي تقوم وتنمو وتتجدّد على هذه القواعد والأصول، مرتبطة بها، ومصطبغة بصبغتها، وفي الوقت ذاته مظلّلة لمساحات جديدة من الوقائع والمشكلات ..

د ــ **ومصدراً لأبنية وهياكل الدولة الاسلاميّة التي أقامها المسلمون لحماية الدّعوة ونصرتها** ... وهي التي ــ مع ما يماثلها ــ تمثل نماذج « للواجبات المدنيّة » التي اقتضتها « الفرائض الدينيّة » فاكتسبت صبغة الواجبات الاسلاميّة وأهمّيتها، حتى دون أن يرد التشريع بفريضتها صراحة في البلاغ القرآني .

هـ ــ **ومصدراً للتشريع النبويّ والتّراث القانونيّ في السنّة**، سواء ما كان منه التفصيل لمجمل القرآن، أو ما كان منه اجتهادا فيما لا وحي فيه ... وهي، كذلك، المصدر للتّمييز في هذا الاجتهاد النبويّ بين ما أقره الوحي، بالنّص عليه أو بالسكوت عنه، وبين ما نزل الوحي مصوّبا له أو معدّلا...

و ــ **ومصدراً للتمييز ــ في الممارسات النبويّة ــ بين « الدين ــ الثابت » ــ الذي يجب فيه « الاتباع » للمنطوق والمفهوم، وبين « المتغيّرات ــ الدّنيوية ــ »**، التي يجب فيها التزام المقاصد، دون حرفيّة التطبيقات ... وأيضا التّمييز بين «الدّين ــ الثابت ــ » وبين المتغيّر من الاعراف والعادات .

ز ــ ومصدراً للتّمييز بين **ما لا يستقل العقل بإدراكه ــ** من حيث الحسن والقبح ــ وفي التشريع والأحكام والفرائض والشعائر ... وفي كيفية الجزاء، ومقادير الثواب والعقاب .. **وبين ما هو من شؤون الدنيا، الموكولة إلى عقول البشر، لقدرتها على أن تستقل بادراكها ــ حسنا وقبحا ــ وعلى أن تقنن لها في إطار شرع الله** .

كلّ هذه المعارف ــ وغيرها مما ماثلها كثير ــ تنهض السنّة النبويّة، في النسق الفكريّ الاسلاميّ، ووفقا لقواعد المنهج السمعيّ، مصدرا للمعرفة اليقينيّة في ميادينها ... بل إنّ صحيح هذه السنّة، الذي اجتمعت له شروط الصّدق ــ من حيث الرّواية والدّراية ــ هو كنز للمعارف الاسلاميّة، شديد الغنى وعظيم الثراء وجمّ الفوائد، كان ولا يزال وسيظلّ المنبع للصّورة المكتملة الملامح لمنهج النبوة الربانيّ، في تطبيقاته الحياتيّة الحيّة :. وهو المنهج الفاعل في أيّ جهد جادّ من أجل الإحياء والتّجديد والتّقويم لحياة الأمة، عندما تتراجع تصوراتها وتطبيقاتها عن معايير ومعالم هذا المنهج، فتعدو على إسلامية فكرها وواقعها عوامل الانحراف.

هنا، تصبح السنّة، الكاشفة عن معالم منهج النبوّة، مصدرا غنياً للمعرفة المجدّدة لفكر الاسلام ولواقع المسلمين..

هذا عن مكانة السنّة النبويّة مصدرا للمعرفة في منهج الاسلام .

نماذج شاهدة :

وإذا شئنا نماذج شاهدة ــ أو على الأقل أمثلة لها ــ تؤكد صدق الذي ذهبت وتذهب إليه هذه الصّفحات، فاننا واجدون في عوالم المعارف التي ضمّتها السنّة النبوّية، المتواترة والمشهورة، والتي تجسّدت فغدت واقعا تعيشه الأمّة وتمارسه منذ عصر صدر الاسلام حتى الآن وإلى ما شاء الله ... إنّنا واجدون في عوالم معارف هذا المصدر النبويّ ما يشهد على أن هذا هو مكانها من عوالم معارف المصدر الاسلامي الأول : القرآن الكريم ... مكان « البيان النبوي » من « البلاغ الالهيّ »...

وعلى سبيل المثال :

ــ فالقرآن الكريم يشير الى قضية « بدء الخلق »، ذلك الذي تفرّد به الله سبحانه وتعالى، وجاءت إشارات القرآن لتتحدّى به الطواغيت وعبدة غير الله ... ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ [1] .. ﴿ **الذي أحسن كلّ شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين** ﴾ [2] ... ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون** ﴾ [3] .. كما يتحدث القرآن الكريم عن أن أحدا من هؤلاء المكذّبين لم يشهد « بدء الخلق » حتى يكون له علم به أو فيه ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متّخذ المضلّين عضدا** ﴾ [4].

وإذا كانت هذه الاشارات القرآنية إلى «بدء الخلق» هي اليقين المتاح للمعرفة الانسانية عن هذا الأمر الذي لم يشهده سوى الخالق، سبحانه وتعالى، فلقد مثّلت السنّة النبوّية مصدر المعرفة الذي أتاح لنا طرفا من الحديث والعلم عن صورة الانسان الذي خلقه بارئه في أحسن تقويم ... ففي البخاريّ ــ من حديث عمران بن حصين ــ يقول الرسول، ﷺ، : « كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء، وخلق السّموات والارض ... » ... وفيه، كذلك ــ من حديث عمر ــ « قام فينا النبي ﷺ، مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم. حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه » .

---

١ ــ العنكبوت : ٢٠

٢ ــ السجدة : ٧

٣ ــ يونس : ٣٤. كذلك الأعراف : ٢٩، والأنبياء : ١٠٤، ويونس : ٤، والنمل : ٦٤، والروم : ١١، ٢٧ ، والعنكبوت : ١٩، والبروج : ١٣

٤ ــ الكهف : ٥١

فمن هذا المصدر النبويّ، وتبعا للمصدر القرآنيّ عرفنا ونعرف طرفا من خبر بدء الخلق، الأمر الذي أتاح لنا تصور الجلال الذي اختص به، مثلا، خلق الانسان، حتى لقد أمر ملائكته بالسجود له .. بينما وجدنا هذه الصورة، لدى العلم الغربيّ، الذي رفض المنهج السمعيّ، هي صورة الحيوان البدائيّ والهمجيّ !..

ـــ وتاريخ ما لم يسجّله ولم يحفظه التّاريخ، ذلك الذي بادت آثار أهله ومعالم مجتمعاتهم، أو سبقت حقبه قدرة الانسان على صنع الآثار الباقيات..
هذا التاريخ عن الأمم السابقة والحضارات البائدة .. نجد عنه وعن أممه إشارات في القرآن الكريم ... من ذي القرنين إلى عاد وثمود وأهل مدين، وقرى ومواطن وأخبار الانبياء والرّسل السّابقين ... وإذا كانت هذه « الاشارات التاريخية » هي القدر المتيقّن من ذلك التاريخ، فاننا واجدون في السنّة النبوية طرفا من المعارف، فيها بعض التّفصيل لما في البلاغ القرآنيّ من إشارات لذلك التّاريخ.

ـــ وواقع الجاهليّة، التي أخرج الاسلام أهلها من ظلماتها إلى نور الاسلام ـــ وهو واقع جماعة بشريّة غلبت عليها الأميّة، فكانت فقيرة في أدوات التّدوين لتاريخ مجتمعاتها ـــ هذا الواقع الجاهليّ ـــ في عاداته وتقاليده واعرافه ... في أديانه وأوثانه ومناسكه ... في تشرذمه القبليّ وعلاقات قبائله بمن جاورهم من الدّول والشعوب ... في مكانة المرأة به، وأنواع الزواج وعلاقات الرجال بالنساء في الحلال والحرام ... في أنماط الانتاج وعلاقاته ومصادر الارتزاق ...الخ...الخ ـــ هذا الواقع الجاهلي، والذي لا سبيل إلى فهم عمق التطور الاسلامي وجذور الانجاز الاسلاميّ الا بتصوّره، باعتباره ميدان هذا الانجاز، والسبب في مجيء البناء الحضاريّ الاسلاميّ على هذا النحو الذي جاء عليه ... هذا الواقع الجاهليّ لن نجد مصدرا من مصادر المعرفة والتعريف له أغنى من سنّة النبي، عليه الصلاة والسلام...

ـــ وهذا التّجسيد الذي صنعه البيان النّبويّ للبلاغ القرآنيّ، والذي ميّز رسالة محمد ﷺ من كثير من رسالات الرّسل الذين سبقوه على درب اتصال السماء بالأرض... هذا البيان الذي جعل الرسالة : أمة ودولة ومجتمعا ونظاما وحضارة، اهتدت بالمنهج الربانيّ، واصطبغت بصبغة الله ... ليس كالسنّة النبوية ديوان جامع لمعارفه وللتعريف بحقائقه اليقينيّة ـــ قبل أن تغبشها قصص القصّاصين ومدائح « المدّاحين » ! ـــ ... إنّها التاريخ الأدقّ لمجتمع صدر الاسلام، فيها معارف وصف واقعه، ونصوص دستوره وقانونه، وعاداته وأعرافه ... وفيها صور نشاط إنسانه في كثير من ميادين الحياة، الخاصّة منها والعامّة ... وفيها أوفى وصف لدولة الاسلام الأولى : رعيّتها، وحدودها، وطرائق العيش وسبل التّكسّب فيها ... وغزواتها وفتوحاتها، وفنون قتالها، وما حدث فيها من انتصارات وانتكاسات ... وفيها سجلّ العلاقات الدّوليّة، والمعايير التي حكمتها ... ففي هذه السنّة النبويّة، قبل غيرها، وأكثر من غيرها ـــ بل وربما دون غيرها ـــ سنجد ديوان المعارف ومصدرها، الذي نعرف منه ونغترف صورة الحضر والبيد ... وماذا كانت تعني الهجرة في التطوّر من التعرّب والبداوة إلى التمدّن والحضارة ... وكيف كانت الشورى، وبدايات مؤسّساتها ... والتراتيب الاداريّة ... والكتّاب والتراجمة والمكاتبات، والولاة والولايات والعمالات ... والصّورة الأدقّ والأصدق للمرأة كما أرادها وصنع نموذجها الاسلام ...

والأموال والخراج ... الخ ... الخ... فهي، في هذه الميادين، وما ماثلها، أوثق وأغنى مصادر المعرفة للقارئين والباحثين على السواء .

ـــ واذا كان البلاغ القرآنيّ قد حدّد الرّسالة الخاتمة الخالدة في عقد الرّسالات الالهيّة للبشر ... مكانة المصدّق في الاعتقاد الدينيّ الواحد ـــ أزلا وأبدا ـــ ، والمهيمن في الشّريعة المتغيّرة باختلاف أمم الرسالات ﴿ **شرع لكم من الدّين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدّين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[1] ... ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبّع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم، فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾[2].

إذا كانت هذه هي مكانة الرّسالة الخاتمة، عقيدة وشريعة، من عقد الرسالات السماوية وسلسلتها، فإنّ في السنّة النبوية ـــ وهي البيان النبويّ لهذا البلاغ القرآنيّ ـــ الكثير من المعارف التي نستطيع ان نلتمسها حول هذا الموضوع...

ففي حديث أبي هريرة، يقول رسول الله، ﷺ : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بنيانا فأحسنه وأكمله إلّا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل النّاس يطيفون به ويعجبون منه ويقولون : ما رأينا بنيانا أحسن من هذا إلّا موضع هذه اللبنة، فكنت هذه اللبنة » [3].

وفي حديث أبي هريرة، أيضاً، يقول الرسول، ﷺ : « بعثت لأتمم حسن الأخلاق » [4].

بل إنّنا لواجدون في التطبيقات النّبويّة التي جسّدت علاقات المسلمين بأهل الكتاب، في داخل المجتمع الاسلاميّ الناشيء والدولة الاسلامية الوليدة، ومع الدول والمجتمعات الكتابيّة المحيطة ـــ وهي ـــ هذه التطبيقات ـــ جزء من السنّة النبوية ـــ إننا واجدون فيها كنزا غنيا من المعارف، لا سبيل الى التماسها في مصدر آخر من مصادر هذا الباب وذلك التّاريخ...

ـــ وإذا كان البلاغ القرآنيّ يعلّمنا ـــ ضمن ما يعلّمنا ـــ المذهب الاسلاميّ المتميّز في أمر السنن والقوانين المودعة في ظواهر الطبيعة وحقائق الوجود ... وهو المذهب الذي يعترف بفعل السّنن والقوانين في المسبّبات المتولّدة عنها، مع الايمان بأن هذه السّنن والقوانين، مثلها مثل الظواهر والقوى التي أودعت فيها، جميعها مخلوقة لمن خلقها وخلق فيها هذه السّنن والقوانين الفاعلة ... ففعلها المنظّم والمطّرد هو خلق الله وارادته، وله، سبحانه، القدرة على إيقاف وخرق الاطراد المعتاد لعمل هذه السّنن

---

١ ـــ الشورى : ١٣.

٢ ـــ المائدة : ٤٨ .

٣ ـــ رواه البخاري ومسلم والترمذي والامام أحمد والامام مالك في الموطأ .

٤ ـــ رواه مالك في الموطأ .

والقوانين إذا أراد إظهار اعجاز يؤيد به رسولا أو يتحدى به من لا يخصّونه بالالوهيّة والربوبيّة.. هذا ما يعلّمنا إيّاه البلاغ القرآنيّ عندما تشير آيات منه إلى سنن الله في الكون والوجود والطبيعة والانسان والمجتمعات..

﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمّة ونجعلهم الوارثين. ونمكّن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ (١) ... **﴿ ... إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾** (٢)... **﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلّا قليلا، وكنا نحن الوارثين. وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمّها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكي القرى إلّا وأهلها ظالمون ﴾** (٣) ... **﴿ وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا ﴾** (٤).

تلك بعض من آيات البلاغ القرآنيّ التي أشارت إلى بعض من سنن الله في الجماعات والمجتمعات ... وعلى هذا الدرب نجد السنّة النبويّة كنزا للمعارف التي تغني الفكر الانسانيّ في هذا الميدان :

« ما ظهر الغلول في قوم إلّا ألقى الله في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم إلّا وكثر فيها الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلّا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلّا فشى فيهم الدم، ولا ختر قوم بالعهد إلّا سلط عليهم العدو » (٥) ... « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرُنّه على الحق أطْرا، أو ليضربنّ الله بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم » (٦) ... « إذا رأيتم الظالم فلم تأخذوا على يديه يوشك الله أن يعمّكم بعذاب من عنده » (٧) ... « إيّاكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » (٨) ... « لا يلبث الجور بعدي إلّا قليلا حتى يطلع، فكلّما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتي الله، تبارك وتعالى، بالعدل، فكلّما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره » (٩) .. سأل حذيفة بن اليمان رسول الله، ﷺ : « يا رسول الله، أيكون بعد الخير الذي أعطينا شر، كما كان قبله ؟.

---

١ ــ القصص : ٥، ٦.
٢ ــ الأعراف : ١٢٨.
٣ ــ القصص : ٥٨، ٥٩.
٤ ــ الاسراء : ١٦.
٥ ــ رواه الامام مالك في الموطأ.
٦ ــ رواه الترمذي وأبو داود والامام أحمد.
٧ ــ رواه الترمذي.
٨ ــ رواه الامام أحمد.
٩ ــ رواه الامام أحمد.

ـــ فقال ﷺ : نعم !
ـــ قال حذيفة : فبمن نعتصم ؟
ـــ فقال ﷺ : بالسيف ! » (١).

« إذا رأيتم أمّتي تهاب الظالم أن تقول له : إنّك أنت ظالم، فقد تودّع منهم » (٢) ... ومن حديث ثوبان ـــ مولى رسول الله ـــ يقول ﷺ : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها. قال : قلنا: يا رسول الله، أمن قلّة بنا يومئذ؟! قال : أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن. قال : قلنا : وما الوهن ؟! قال : حب الحياة وكراهية الموت » ! (٣) ... « من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برىء من الله تعالى وبرىء الله تعالى منه ، وأيما أهل عرصة (٤) أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمّة الله تعالى » (٥) ... « مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فاذا انطمست النجوم أوشك أن تضلّ الهداة » (٦) ..

تلك أمثلة على أطراف من المعارف التي مصدرها السنّة النبويّة ... معارف السنن والقوانين التي أقامها الله وأودعها في الجماعات والمجتمعات والاجتماع.

ـــ وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل الانسان خليفة في استعمار هذا العالم الذي يعيش فيه، وعلى امتداد الآفاق التي يبلغها سلطانه .. وإذا كان البلاغ القرآنيّ قد حثّ هذا الانسان على النهوض بمهام الاعمار هذه، فتحدثت آياته قارنة الايمان العامل بالعمل المؤمن، على نحو كاد أن يكون دائما ... ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ (٧) ... ﴿ **فاذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب** ﴾ (٨) ..

إذا كانت هذه هي إرادة الله، وهذا هو حديث البلاغ القرآنيّ عن عمارة العالم الانسانيّ بالايمان العامل والعمل المؤمن، فان البيان النبويّ ـــ السنّة ـــ زاخرة بالمعارف التي تمثل الزاد الذي لا ينفد في هذا الميدان ... فأحاديث العمل ... والمأثورات التي قننت لاحياء الأرض وعمارتها .. هي مما لا يتسع له

---

١ ـــ رواه أبو داود والامام أحمد.
٢ ـــ رواه الامام أحمد.
٣ ـــ رواه أبو داود والامام أحمد.
٤ ـــ العرصة : الساحة والفضاء الذي تتحلقه وتجاوره المساكن .
٥ ـــ رواه الامام احمد .
٦ ـــ رواه الامام احمد.
٧ ـــ الجمعة : ٩، ١٠.
٨ ـــ الشرح : ٧، ٨.

المقام ... بل إنّ تجربة البناء الاجتماعي والاقتصادي لدولة الاسلام الأولى هي التجسيد العملي لهذا البيان النبويّ في هذا الميدان .. وفي حديث أبي هريرة، يقول ﷺ : « خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح » (١) ... بل إنّ تعظيم العمل الانساني يبلغ في السنّة النبوية المقام الذي يتحدث عنه حديث الرّسول، ﷺ، الذي يرويه أنس بن مالك : « إذا قامت الساعة، وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل »! (٢).

تلك إشارة إلى زاد المعارف التي تقدمها لنا السنّة، مصدراً للمعرفة في هذا الميدان .

ــ وإذا كانت العقيدة الاسلامية تأبى « العبثيّة » التى ترى في هذه الحياة الدنيا نهاية المطاف بالنسبة للحياة والأحياء... وتجعل من الايمان بالبعث والحساب والجزاء، في اليوم الآخر، ركنا من أركان الايمان ... وإذا كان البلاغ القرآنيّ قد أشار إشارات عديدة إلى « البعث »، في معرض إقامة الحجّة على منكريه ... ﴿ **وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ (٣) ... ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربّي لتبعثنّ ثم لتنبؤنّ بما عملتم ، وذلك على الله يسير** ﴾ (٤) ... ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة ، إنّ الله سميع بصير** ﴾ (٥) ... ﴿ **إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ (٦).

إذا كانت تلك إشارات إلى حديث البلاغ القرآنيّ عن « البعث » وخبره، فإنّ معارف السنّة النبويّة عن أنباء « البعث » وصوره وأحوال الناس فيه، هي المصدر الذي يجد فيه المسلم ما يقرّب صورة هذا الغيب، على نحو ما، إلى العقل المحدود لانسان عالم الشهادة، الذي تتوجه إليه الرسالة الالهية بالبلاغ وبالبيان.

ففي حديث أبي ذرّ، يقول رسول الله، ﷺ : « ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم : المُسْبِل (٧) والمنّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » (٨) ... كما نعلم أيضا، ... « إنّ من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة : عالما لا ينتفع بعلمه » (٩)!..

---

١ ــ رواه الامام احمد.
٢ ــ رواه الامام احمد.
٣ ــ الانعام : ٢٩.
٤ ــ التغابن : ٧.
٥ ــ لقمان : ٢٨.
٦ ــ آل عمران : ٧٧.
٧ ــ المُسْبِل ــ بضم الميم وسكون السين وكسر الباء ــ المرخي ازاره، الجار طرفه كبرا وخيلاء.
٨ ــ رواه مسلم.
٩ ــ رواه الدارمي.

هذا اضافة الى ما ضمت كنوز السنّة من صور تقرب للذهن الانساني، قدر الامكان، أحوال النفخ في الصور ... وأحداث ما بين النفختين ... وصورة الحشر ... ومكانه ... وصورة الناس فيه ... والحساب ... والميزان ... والجزاء... والشفاعة ... ومن يظلّهم الله يوم لا ظلّ الا ظلّه ... الخ ... الخ ... الخ... وغيرها من المعارف المقرّبة والميسّرة والمفسّرة لاشارات البلاغ القرآنيّ لهذا العالم الذي يستحيل على العقل البشريّ إدراك كنه حقائقه، كما تستحيل على لغة البشر أن تكون وعاء يفي بحمل ما في أنبائه من مضامين...

تلك أمثلة لنماذج شاهدة على السنّة النبويّة مصدرا من مصادر المعارف السمعية في النسق الفكريّ للاسلام ... وهي إن وقفت عند حدود « الأمثلة » ــ مراعاة للمقام وللحيز ــ فانها شاهدة على صدق وفاء السنّة النبوية بهذه المهمة في فكر الاسلام وفي حضارة المسلمين..

وأخيـــرا :

فإنّ التماس الانسان المسلم المعارف العديدة، من المصادر والميادين المتعدّدة، بواسطة السنّة النبويّة، إنّما يفتح للعقل الانسانيّ الجديد والعديد من الآفاق، وذلك دون أن يحدّ من قدرات وإمكانات وآفاق هذا العقل أو يقيّد من طموحاته ... بل إنّ هذا النهج الاسلاميّ، الذي لا يقف ــ كالنهج الغربيّ ــ عند المنهج الحسيّ التجريبيّ، إنّما يقوم ــ مع تهذيب غرور العقل ــ بتوجيهه إلى الميادين الحقيقية التي تأهّل لأن يبدع فيها، وذلك عندما يعلّمه حقيقة عجزه عن الاستقلال بإدراك معارف عالم الغيب ... وكأنه ــ المنهج الاسلاميّ ــ يذكّر العقل بالحقيقة الخالدة التي تقول : كلّ ميسر لما خلق له !..

كذلك، فان هذا المنهج الاسلاميّ، الذي يجعل البلاغ القرآنيّ، وبيانه النبويّ : مصدرا للمعرفة اليقينيّة في ميادين عديدة ــ يكون في بعضها : مجرد حافز للعقل على النظر، وحافظ له من تجاوز الحدود... ويكون في بعضها: المعين والمؤازر ... ويكون في أخرى : المصدر الوحيد لمعرفة ما لا قبل للعقل بالخوض فيه..

ان هذا المنهج المتميّز هو المحقّق : تكامل المعرفة الانسانيّة، وذلك عندما يحقّق للانسان قدرا من معارف عالم الغيب، إلى جانب زاده وزاد اجتهاداته من معارف عالم الشّهادة ... وهذا التّكامل هو الذي يحقق « التوازن المعرفيّ » للانسان، على النحو الذي ييسر له « التوازن السلوكيّ »... وبهما ــ التوازن المعرفيّ، والتوازن السلوكيّ ــ تتحقق « المعاني » و« الحكم » و« العلل الغائيّة » من وراء خلق الانسان، واستخلافه عن الله، سبحانه وتعالى، في عمارة هذا العالم ... فتنتفي ــ أو تقلّ ــ من حياته منغّصات وأزمات « العبثيّة » و« اللا أدريّة » و« الطرق المغلقة »، التي تأخذ بخناقه في ظل الحضارات الماديّة، والتي قادته ودفعته ــ خارج منهج الاسلام ووسطيّته ــ إلى مستنقعات : « الشهوة الحيوانيّة » و« اللّذة الآنية » و« الأنانيّة المتعالية » و« النظرة العدميّة » تجاه ما وراء عالم المحسوسات ... فلم ينجح التقدّم المادّي الذي أحرزه في إنقاذه من القلق والقنوط والاحباط ... حتى لتصدق عليه

الآية القرآنية التي تتوعد فتقول : ﴿ **كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون** ﴾ [1] ! ... وحتى لكأنهم دهريو العصر، القائلون : ﴿ **ما هي إلّا حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلّا الدّهر** ﴾ [2] ! .

هذا هو منهج الاسلام، الغاصم للانسان من هذا المصير ... به رأينا السنّة النبويّة مصدراً للمعرفة، تنهض بدورها إلى جانب البلاغ القرآنيّ في إثراء معارف الانسان المسلم، وإغناء النّسق الفكريّ لحضارة الاسلام .

---

١ ــ المرسلات : ٤٦.

٢ ــ الجاثية : ٢٤.

التعليـق الأول

الدكتور إبراهيم أحمد عمر*

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

مقدمة :

هذا زمان ازدهرت فيه المعرفة، وتسابقت فيه الأمم تأخذ بالعلوم والتقنية، واستبانت فيه أمة الاسلام أن الصراع الحضاري الذي تشهده الساحة الاسلامية، والذي تخوضه الحضارة العربية الإسلامية في أفريقيا على وجه الخصوص، أصبح يعتمد على توظيف العلم والمعرفة .

فلكي نكسب نتيجة ذلك الصراع الحضاري لا بد أن نكسب المعركة التي تدور في مجال العلم والمعرفة، ولن يتم ذلك إلا بفكر سليم وعلم صحيح ومعرفة واسعة تبني إيمانها على علمها بمنهج مستقيم.. ومن منطلق هذه الإعتبارات المهمة التي ترتبط بمستقبل حضارتنا ومصالح أمتنا أتناول بالنقاش البحث الذي أعده الأستاذ الدكتور محمد عمارة .

أولا :

١ ــ لب البحث وغرضه هو أن السنّة المطهرة كنز من المعارف. كنز يمثل عنصراً أساسياً من مصادر الفكر الاسلامي، وأن هذا المصدر، مع الوحي الأول، هو أساس تمييز وامتياز الفكر الإسلامي، على الأفكار الوضعية، وقد أثبت الأستاذ الدكتور قائمة طويلة من المعارف التي نجدها في السنة، وذهب يوضح ذلك بالأمثلة، فالسنّة مصدر للمعرفة بأسباب نزول الوحي، ولمعرفة التاريخ السياسي والإجتماعي والإقتصادي للتجربة الإسلامية الأولى، ولمعرفة الفروع التي وقف القرآن عند أصولها ... الخ (ص ٣٩) .

وأقول : أن يتجه المفكرون في أمتنا هذا الإتجاه أمر ــ في حد ذاته ــ كبير جميل، ويبعث الأمل في أن تخرج الأمة من حاضر، تتوكأ فيه على معارف غيرها، الى مستقبل تتحدى فيه

---

* رئيس قسم الفلسفة ــ كلية الآداب ــ جامعة الخرطوم .

بعلمها ومعرفتها وحضارتها، وأن يتصدى مفكرونا لمثل هذه القضية بالوجه العلمي الموضوعي السافر هو الدواء الناجع للإتجاهات الإعتذارية التي غرسها فينا الضعف الفكري والإستلاب الحضاري .

والأستاذ الدكتور محمد عماره، عندما يتصدى لقضية المعرفة من منطلق الوحي (الثاني)، فإنه يساعد كثيراً في إزالة حالة الخوف التي يعاني منها المفكرون المسلمون عندما يطرقون مجال المعرفة، وهو يساعد في كسر حاجز المهابة الذي يشعر به كثير منا ونحن نلج مجالا هيمنت عليه الحضارة الغربية، ونجحت فيه نجاحاً ملموساً، وأفلحت لقرون في أن تحصرنا في زاوية ضيقة منه .

٢ ــ البحث ــ على أهمية موضوعه ــ مختصر في غير خلل، دقيق في تعبيره، وواضح في معانيه. وهذا مما يساعد القارىء في الوصول الى جوهر ما يدعو له الكاتب. وذلك أمر جميل في زمانٍ تكاثرت فيه المطبوعات، وتقاصرت فيه ساعات الإطلاع .

أما بعد :

فإن أهمية الموضوع،وأهمية أن نتعاون في توضيح الأفكار،تستدعي الوقوف المتسائل عند بعض القضايا :

ثانيا :

أ ــ المذهبية، المنهج والمصدر

تناول الأستاذ الدكتور قضية المذهبية والمنهج والمصدر، ويبدو لي أن حديثه في هذه القضية لم يكن مستقيماً، **فالمنهج يعتمد المصدر** : « وبسبب من سيادة هذه النزعة الدنيوية العلمانية لم تعتمد مناهج الفكر الوضعي هذه سوى الدنيا ــ العالم ــ المحسوس مصدراً وحيداً للمعرفة الحقيقية والعلم الصحيح... (ص ٢٩) .

وفي موقع آخر نجد أن **تحديد المصدر أسبق من تحديد المنهج** : « فلأن أصحاب هذه النزعة قد اختزلوا عالم الإنسان إلى عالم الشهادة كان اختزالهم مصادر المعرفة الصحيحة إلى الظواهر المادية دون غيرها ، ومن ثم اختزالهم أدوات المعرفة الى الحواس » (ص ٣٠) .

وفي موضع ثالث **يختلط الأمر بين المنهج والمصدر** : « ولذلك وجدنا هذه المذهبية الإسلامية لا تقف بمصادر المعرفة عند المنهج التجريبي وحده » (ص ٣٢) .

وفي موضع رابع : « كذلك فإن هذا المنهج الإسلامي، الذي يجعل البلاغ القرآني وبيانه النبوي مصدراً للمعرفة اليقينية في ميادين عدة » (ص ٤٩).

ولكن **الأرجح** هو أن الأستاذ الدكتور يرى **أن المنهج يحدد المصدر** خاصة إذا قدرنا أن المقصود في (ص ٣٢) هو أن المذهبية الاسلامية لا تقف بمصادر المعرفة عند ما **يعتمده** المنهج التجريبي وحده . ولنا ملاحظة تعبر عن اختلاف مع الأستاذ الدكتور سنوضحها فيما بعد .

ب ــ هذه المناهج :

وذكر الأستاذ الدكتور عدداً من المناهج « **التجريبي، الاستنباطي، التاريخي والسمعي** » . وأعطاها من الأهمية مكانة : فهي التي تحدد مصادر المعرفة. **ولكنه لم يصفها لنا، ولم يطلعنا على كيفياتها أو فنياتها** ، إلا ما جاء في اختصار شديد عن المنهج التاريخي من ان الإنسان يستدل بواسطة **التواتر النقلي** .

بل إنه **لجأ في تعريفه لها الى المصادر** التي قال ان المناهج تحددها : « المنهج السمعي هو ذلك الذي يكون الوحي الإلهي والسنّة النبوية مصدر علومه.. » فما هو هذا المنهج ؟ وكذلك بالنسبة للمنهج الإستنباطي « هو ذلك الذي يستنبط به الإنسان من الجزئيات معارف تقطع بضرورة وجود غير مادي » فهنا أيضا لا نجد وصفاً للمنهج ذاته وكيفياته، وإنما تحديداً للمصدر الذي يعمل فيه .

وفي غياب توضيح لمثل هذه القضية المفتاحية في مثل هذا البحث، نجد أن أسئلة كثيرة تخطر للإنسان في العلاقة بين هذه المناهج المتعددة التي تعتمد أو تحدد مصادر متعددة .

ولكن أخطر ما في الأمر أنها تعطي الإنطباع ــ على أقل تقدير ــ في أنه **لكل منهج معين مصدر من المعرفة معين** : المنهج التجريبي للأشياء المادية، المنهج الاستنباطي للمعقولات، المنهج السمعي للغيبيات غير المادية، التاريخي للغيبيات المادية .

ويبدو أن هذه الصورة هي وليدة الطرح الذي تناولناه سابقاً عن المذهبية والمنهج والمصدر. **والتحفظ الذي ذكرته آنفاً هو أن القول بأن المنهج يحدد المصدر يؤدي لهذه الصورة** .

وحتى عندما يرى القارىء أن الأستاذ الدكتور يريد أن يتفادى هذه الصورة، لا يجد ــ بعد التمحيص ــ إلا أن يعتقد أن الأستاذ الدكتور يكرس هذه الصورة. فعندما يتحدث الدكتور عن المنهج الاسلامي (ص ٤٩) يقول : « فان هذا المنهج الاسلامي، الذي يجعل البلاغ القرآني، وبيانه النبوي : مصدراً للمعرفة اليقينية في ميادين عديدة ، يكوّن في بعضها : مجرد حافز للعقل على النظر، وحافظ له من تجاوز الحدود ... ويكون في بعضها:المعين والمؤازر ... ويكون في أخرى:المصدر الوحيد لمعرفة ما لا قبل للعقل بالخوض فيه » فنجد أن الدكتور يُركز على أن المعرفة التي يقدمها الوحي هي عن عالم الغيب اللامادي في الأساس، أما عالم الشهادة، أو حتى المعقولات،فدور الوحي فيها هو أن يحفز العقل ويطلب منه الا يتجاوز الحدود .

ثالثاً :

السنّة مصدر للمعرفة :

والحديث عن المذهبية والمنهج والمصدر بتلك الصورة يؤدي الى نتائج في قضية المعرفة، وبخاصة المعرفة التي يتحصل عليها من الوحي :

فتكامل المعرفة سيعني أننا نضع معارف مستقلة جنباً الى جنب ،ويكون في ذلك اكتمال الصورة : معرفة عن الوجود المادي وصلنا اليها بالمنهج التجريبي وفي استقلال تام عن معرفتنا بالوجود الغيبي غير المادي اللهم إلا من نصيحة أو تشجيع. وكذلك معرفة بالمعقولات توصلنا إليها بالمنهج الإستنباطي وفي استقلالية تامة وهكذا..

وأخطر من ذلك كله اننا نكون قد حصرنا المعرفة التي يكون الوحي مصدراً لها في الغيبيات ، كما أنه يكون قد حكمنا على المصادر الأخرى بأنها لا تؤدي الى معرفة عوالم غير مادية. وقد أثبت الأستاذ الدكتور هذا المُوقف حيث كتب « ان الله تعالى لم يكله (الانسان) في المعرفة الى حواسه وحدها والى قدراته بمفردها. فكانت رسالات السماء مصادر للمعرفة لا تلغي المعارف المحسوسة المشاهدة ولا تقلل من شأن أدوات إدراكها، وانما تضيف الى المعرفة الإنسانية معارف يقينية لا تثمرها المادة وتستقل بادراكها الحواس لأنها معارف عوالم غير مادية .

ولكن الأستاذ الدكتور ذكر قائمة طويلة من العلوم الاجتماعية والانسانية فيما ذكر أن السنّة مصدر له.

نقول ان جل العلوم التي ذكرها عبارة عن دراسات في التاريخ أو التطبيق، حتى ان الانسان ليتساءل ان لم تكن كل المعارف التي ذكرها مجالًا للمنهج التاريخي الذي ذكره الدكتور .

كما أن المعارف التي ذكرها الاستاذ الدكتور تعطي الانطباع بأن هذه المعارف التي نتحدث عنها تطفو على السطح ويمكن ان يتناولها الباحثون بادواتهم القديمة : هي معلومات عن عادات وتقاليد وأعراف ومؤسسات اجتماعية وثقافية وسياسية ... الخ. وكان تطلعي الى معارف جديدة تستخرج بمنهاج وأدوات للبحث جديدة : دراسات لغوية ومنطقية متطورة ومعايشة وفهم تورثه العبادة الخالصة. تغوص هذه المناهج ــ الادوات معطيات الوحي ــ كما غاصت الأدوات والأساليب الجديدة في خلق الله فوصلت الى أبعد مما كان مطروحاً على السطح .

ثم إن البحث عن المعرفة دار حول محاور هي من ركائز التراث الانساني المنفلت عن الوحي،مثل التصنيف مادياً وغير مادي، وقبل الباحث المناهج كما هي، ومنها مثلًا قبوله للمنهج التجريبي ومحاولة معالجة نقصه بالصورة التي تعرضنا لها سابقاً.

وعلى أي حال فإن الاسئلة التي خطرت لي وأنا أطالع البحث كانت عن المفاهيم والسنن الكونية أو

الاجتماعية أو الانسانية التي سيوضح البحث أن السنّة مصدر لها، والى أي مدى ستشارك معارف السنّة في حل الاشكالات المعرفية التي تعالج الآن في العلوم الطبيعية والاجتماعية والانسانية.

كنت أتوقع أن يثبت لنا الباحث أن الفكر الانساني سيكون أكثر صدقاً أو عمقاً أو شمولًا، أو أن مناهجه ستكون أكثر فاعلية أو عملية باضافة السنّة، وقد فعل ذلك بطريقة من الطرق، ولكنها أثارت لدي بعض الأسئلة التي طرحت عن علاقة المنهج بالمصدر والسؤال عن تكامل المعرفة وعن مدى قبولنا لمحاور الفكر ومرتكزاته، كما تمثل في التصنيف المادي أو غير المادي، وفي استسلامنا لمنهج لم يستطع مقدموه أن يوفوا بما وعدوا به حتى الآن مثل المنهج التجريبي. وعن نوعية المعرفة التي نتطلع إليها .

التعليــق الثـانـي

الدكتور محمد عويضة ★

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد :

فان موضوع السنّة النبوية وكونها مصدراً من مصادر الاسلام بكل جوانبه،من الموضوعات التي تناولها علماؤنا ممارسة كُلٍّ في ميدانه، وتناولها علماء الاصول بخاصة عند بيانهم لمصادر التشريع .

أما تناولها باعتبارها مصدرا للمعرفة، فهذا من الموضوعات الحديثة التي تحتاج الى بيان وَتجلِيَة. وهذا البحث من الابحاث المبتكرة من حيث العرض والتقسيم والبيان والتأصيل في هذا الميدان .

ومما يميز هذا البحث أنه انطلق ابتداء من البعد النظري للموضوع، حيث بَيَّن الفرق بين النظرة الغربية للحياة والكون والانسان، وأنها مادية محدودة بالبعد الدنيوي المادي، وبالتالي فان مصدر المعرفة والطريق اليها عندهم محدود بالمنهج التجريبي واعتماد الحواس طريقا اليه .

وبين النظرة الاسلامية للحياة والكون والانسان، وأنها ليست محدودة بالحياة الدنيا، ولا بالبعد المادي للوجود. فهي بالتالي تعتمد منهجا مغايرا للمعرفة ومصادر وطرقا أخرى لا تقف عند المادة والحواس كما عند الغرب .

فبناءً على اتساع ميادين المعرفة، وبناء على طبيعة الانسان التي تجمع بين المادة والروح، وطبيعة وظيفته فهو خليفة عن الله في الارض. وبناء على رعاية الله ولطفه به، كل هذا وغيره اقتضى ان يزود هذا الانسان بالوحي، ليكون مصدر المعرفة اليقيني الذي يُزَوِّدُ الانسان بما يحتاج اليه مما لا سبيل له للوصول اليه بقدرته الذاتية .

ثم بيَّن الباحث وظيفة الوحي ــ بشقيه الكتاب والسنّة ــ في حياة هذا الإنسان وعلاقته بمعارفه الذاتية، كما بين مكانة السنّة من الكتاب وأنها وحي من الله بشكل من الأشكال .

ثم بيَّن انواعا من المعارف التي كانت السنّة مصدرا لها، وقيمتها كمصدر للمعرفة. وأخيرا بيَّن نماذج تدلل على ما بينته من مصدرية السنّة للمعرفة .

واذا كان لا بد من مزيد بيان لما اورده استاذنا،ونظرا لاهمية الموضوع،فانني أود بيان النقاط التالية :

★ القائم بأعمال رئيس قسم أصول الدين ــ كلية الشريعة ــ الجامعة الأردنية .

١ ــ السنّة مصدر مستقل للمعرفة زيادة على كونها : اما بيانا لما ورد في القرآن بشكل من أشكال البيان، أو مؤكدة لما ورد في القرآن. ومن هنا كان الأمر الرباني بطاعة الرسول ﷺ واتباع ما جاء به عاما، غير مقيد بموافقة القرآن .

﴿ **أطيعوا الله واطيعوا الرسول** ﴾ (١) ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ (٢). ونحن بحاجة الى تأصيل هذا المعنى ردا على ما يُتناقلُ من حديث لا اصل له وهو: (اذا اتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فان وافقه فقد قلته وان خالفه فلم أقله) وقد قال فيه سفيان الثوري وضعه الزنادقة ليردوا به السنن .؟؟ .

بل ثبت في السنّة خلافه، فقد روى أبو داود من حديث أبي رافع مرفوعا « لا أُلفِيَنّ أحدكم متكئا على اريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول : لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » (٣).

ولما يشيع أيضاً ــ انطلاقا من معنى هذا الحديث الذي لا يصح ــ من أن الحديث اذا عارض القرآن يُرَد، نعم قدرٌ من هذا المعنى صحيح، وهذا يَرِدُ في باب تعارض النصوص والترجيح بينها. وقد خصص علماء الحديث لهذا النوع علما خاصاً أسموه « مختلف الحديث ». وللامام الشافعي في ذلك كتاب نافع، وكذا لابن قتيبة وللطحاوي، اما ان يعمم هذا المعنى ويعتمد على اطلاقه، ويصير أساساً لصحة الحديث او عدم صحته، فلا .

ويحاول بعض الباحثين الاعتماد في هذا الباب على ما ورد من بعض الصحابة في ذلك، كَرَدِّ عائشة لحديث عذاب الميت ببكاء أهله، وَرَدِّ عمر لحديث فاطمة بنت قيس وغير ذلك ... نقول :

أولا : هذا لم يكن منهجا عاما عند الصحابة رضي الله عنهم بعامة، ولا عند الذين ردوا بعض الاحاديث بخاصة، وقد ثبت عنهم قبول احاديث أخرى تندرج تحت هذا الباب.

وثانيا : هذا كان استشكالا خاصا عند من رده، وغيره من الصحابة والعلماء بعدهم لم يجدوا هذا الاشكال فلم يردوا هذه الاحاديث، ولم يروا أنها معارضة للقرآن (٤).

٢ ــ السنّة كلها وحي، اما بورودها بصورة من صور الوحي، واما ان تصدر عن النبي ﷺ ابتداء، ثم يسكت عليها الوحي، وهذا اقرار لها، فتكون بذلك وحيا .
وكل ما صدر عن النبي ﷺ من قول او فعل او تقرير او صفة، سنّة بالمعنى الشرعي الذي

---

١ ــ النساء / ٥٩.
٢ ــ الحشر / ٧.
٣ ــ سنن أبي داود ٤/٢٠٠ (كتاب السنّة ــ باب لزوم السنّة ــ دار الفكر).
٤ ــ احتجاج الصحابة بخبر الواحد ــ لكاتب التعليق ــ بحث منشور في مجلة دراسات جـ ١٣ / العدد الاول ١٩٨٦ ص ٦٧ ــ ٨٧ .

يجعلها مصدرا للاسلام وللمعرفة، الا ما كان منها أمرا جلّيا او خصوصيات النبي ﷺ قام الدليل على تخصيصه بها .

٣ ــ السنّة تمثل المقياس والميزان والمقوم الذي يضبط السلوك الاسلامي على صعيد الفرد والمجتمع والدولة. ومن هنا كان الخروج عليها ومخالفتها ابتداعاً مردوداً. وعليه فان كل عمل او وضع أو نظام، انما يأخذ شرعيته من موافقته للسنّة والا فهو مردود مبتدع. فالسنّة بهذا المعنى تمثل ضابطا وحارسا للمعرفة، زيادة على كونها مصدرا لها .

٤ ــ السنّة ــ في جانب من جوانبها ــ تمثل التطبيق العملي والتجسيد الواقعي للاسلام، فهي بهذا شاملة تستوعب كل حاجات النفس والحياة، للفرد والمجتمع والدولة، (فهي مصادر للمعارف ومصدر شامل لها كذلك) .

٥ ــ الجهود التي بذلها العلماء في رواية السنّة وحفظها وتدوينها ونقدها، والقواعد والضوابط التي تتعلق بذلك كله، هذه الجهود تمثل ثمرة جهد انساني ضخم، يعد رصيدا معرفيا في نقد الروايات وميزانا في دراسة ونقد الرجال، يمثل ارقى ما توصل اليه الفكر الانساني في حقل نقد المرويات ... هذا الجهد المعرفي الضخم ما تزال الحاجة ماسه اليه، ويجري التفكير عند كثيرين من العلماء لاعادة دراسة التاريخ على أساس منهج المحدثين ... وهذا كله لولا السنّة ما عرفناه .

وبعد فانني أود ان ابين الملاحظات التالية حول بحث استاذنا وبعضها شكلي لكنه،في مقام الحديث عن المعرفة،بحاجة الى تصويب :

١ ــ في ص (٣١) في آخرها : يقول استاذنا الباحث :
« ودعوة له كي يغوص فيما لا تدركه حواسه، مما سكتت هذه الرسالات عن تفصيل خبره من المغيبات .

هنا لا بد من بيان ان الغيوب : اما مطلقة بالنسبة لهذا الانسان في الحياة الدنيا، فهذه لا سبيل الى حواسّه ان تُفصل في شيء منها، إذ مصدر المعرفة فيها الوحي الصادر عمن يعلم الغيب سبحانه. واما نسبية كالمعارف الكونية التي كانت غيبا بالنسبة للانسان ثم استطاع الانسان ان يصل الى شيء منها. وأظن الكلام كما يفيده السياق يتعلق بالنوع الاول وهذا فيه نظر .

٢ ــ في ص (٣٢) في السطر الثالث من الفقرة الأخيرة، يقول الاستاذ الباحث : « بل انه احد ابداعات حضارتها الاسلامية »، والكلام عن المنهج التجريبي. كنت أود لو أن الاستاذ الباحث بين ان الكتاب والسنّة اشتملا عشرات النصوص التي تعتمد المشاهدة والتجربة وتدعو الى ذلك، فكانت المعرفة التجريبية من ثمرات الكتاب والسنّة، ثم ادركها المسلمون وصاغوها، وكانت من ابداعات حضارتهم .

٣ ــ في ص (٣٥) السطر الثاني من الفقرة الثالثة يقول الاستاذ الباحث : « القران الكريم هو كلام الله ووضعه.. ».

أقول لا يوصف كتاب الله بالوضع، لأنه كلامه الذي هو صفة من صفاته، حتى لا ندخل في مسألة خلق القرآن، اذ لفظ الوضع يتضمن ذلك .

٤ ــ في ص (٣٥) السطر قبل الأخير من الفقرة الثالثة يقول الاستاذ الباحث : « او في عقلانية الدراية » والحديث عن القرآن.

أقول لا يوصف القرآن بذلك، ان هذا وصف للسنّة النبوية ولا يليق في حق القرآن. لأن السنّة تنقد من حيث الرواية ومن حيث الدراية حتى تثبت. أما القرآن فهو منقول بالتواتر، وهذا يفيد القطع واليقين في ثبوته، فلا محل للدراية بعد ذلك. الا اذا حملها الاستاذ الباحث على ما يعقل من تفسيره وما يستفاد من معانيه.

٥ ــ ورد استخدام لفظ التجربة النبوية في الصفحات : (٣٧) فقرة ٣، (٣٧) فقرة ٤، (٣٩) فقرة (ب) وهذا لا يليق، لان فعل النبي ﷺ وحي معصوم، والتجربة تحتمل الصواب والخطأ .

٦ ــ في ص (٣٨) الفقرة الثانية :

يعرّف الباحث السنّة فيقول : هي ما صدر عن رسول الله غير القرآن من قول ــ هو الحديث ــ او فعل او تقرير... » .

أقول : لا داعي لاستثناء القرآن، لانه لم يصدر عن الرسول ﷺ وعندما يخبرنا به النبي ﷺ يميزه عن سائر كلامه .

ولا داعي لتفسير « القول » بأنه الحديث، لان لفظ الحديث في الاصطلاح مرادف للسنّة كلها، لا للاقوال منها، وان كان المعنى اللغوي يفيد ذلك .

ثم يضيف العلماء الى التعريف « او صفة » وهذا مناسب في مقام المعرفة، والتعريف المذكور تعريف الاصوليين فيحذفون « الصفة » لانها لا تفيد في مجال التشريع .

٧ ــ في ص (٣٩) الفقرة (جـ) :

يفهم من كلام الأستاذ الباحث أنه يعتبر ما في القرآن اصولا وثوابت، وما في السنّة فروعا ومتغيرات، وهذا غير دقيق، بل في القرآن اصول وفروع، وفي السنّة اصول وفروع.

٨ ــ في ص (٣٩) الفقرة (د) :

أولا : الابنية والهياكل للدولة الاسلامية التي اقامها المسلمون لا تعتبر سنّة، لان السنّة ما صدر عن النبي ﷺ لا ما صدر عن المسلمين في أي عصر .

ثانيا : ان الواجبات المدنية التي اقتضتها « الفرائض الدينية » ان كانت سنّة، فهي فرائض، وليست واجبات مدنية، كيف والاستاذ يتكلم عن السنّة كمصدر موثوق للمعرفة .

٩ ــ في ص (٤٠) تحت عنوان « نماذج شاهدة » في السطر الثالث حصر الباحث المعارف التي تضمنتها السنّة النبوية في المتواترة والمشهورة، والتي تجسّدت فغدت واقعا تعيشه الأمة..

اقول : أين معظم السنّة الباقي مما لم يتواتر او يشتهر، وهل السنة المتواترة والمشهورة هي التي تمثل الواقع الاسلامي المعاش، او الاحاد ــ وهي غالبية السنّة ــ هي التي تمثل ذلك ؟ ثم ان البحث فيما اورد من شواهد اعتمد على احاد الاخبار، لا على المتواتر والمشهور منها .

١٠ ــ ان البحث يعوزه التوثيق العلمي، ونظرا لطبيعة السنّة النبوية وتوزعها في الكتب، **واختلاف منهج كتب السنة** في التصنيف وعدد طبعاتها، فانها احوج من غيرها الى التوثيق الدقيق ببيان الكتاب والجزء والصفحات والباب.

واخيرا فان البحث جديد في بابه، وهو محاولة موفقة لبيان السنّة كمصدر للمعرفة، وتأصيل ذلك، وتوضيح مجالاته، والتدليل عليه .

والحمد لله رب العالمين.